منذ وقعة بدر، بين البطون المتنافسة في مكة. ففي بدر، أشار بعض القادة بتحاشي المواجهة مع المسلمين مادامت القافلة قد مرَّت بسلام. وبعض القبائل عادت إلى ديارها عندما علمت أن القافلة قد ضلَّلت المسلمين، وأنها سالمة في طريقها إلى مكة[٣٧]. ومرة أخرى في أُحد، عَدَل المكيون عن متابعة حملتهم إلى نهاية مظفرة: بالقضاء على خصومهم في المدينة. وكذلك الأمر في وقعة الخندق، حيث الخلاف بالرأي بين المكيين وخداع حلفائهم أضاعا عليهم ثمار حملة مكلفة، وبالحقيقة، ألحقا ضرراً بالغاً بقضيتهم. واشمئزازاً من حلفائه، وحنقاً من غياب اللحمة في المعسكر المكي، قرَّر أبو سفيان، سيد بني أمية البارز، وقائد التحالف الذي حاصر المدينة، حسب الرواية، الانسحاب والعودة إلى مكة. ولعله في هذه اللحظة بالذات ـ بعد إخفاق التحالف وفشله التام في تحقيق هدفه المعلن من تدمير قاعدة الرسول والقضاء على دعوته ـ أدرك أبو سفيان عبثية استمرار الصراع مع المسلمين، وبالتالي فكر بالتفاوض مع الرسول على عقد سلمي، وباشر باتصالات سرِّية معه في محاولة لتسليم مكة إلى الرسول سلماً.

وبدون افتراض وجود اتفاق سرِّي بين الرسول ومجموعة أبي سفيان، فإن الأحداث التي أعقبت وقعة الخندق لاتجد لها تفسيراً منطقياً. وبداية، يصعب تخيل مبادرة المسلمين للقيام بالحج إلى قلب ديار عدوهم، خلال فترة قصيرة بعد الخندق، دون أن يضمنوا مسبقاً موقفاً متعاطفاً من قبل قطاع واسع نسبياً من سكان مكة.

والمصادر التقليدية تميل للتقليل من دور اولئك المكيين الذين